المحاضرة العاشرة : نظرية الحتمية التكنولوجية

تمهيد

تعد نظرية "الحتمية التكنولوجية من بين أهم نظريات الاتصال في الوقت الراهن، حيث تعتبر منطلقا للكثير من الأبحاث والدراسات الغربية والعربية، التي تحاول تفسير التأثيرات التي تحدثها وسائل الإعلام والاتصال عموما على الأفراد والمجتمعات في العصر الحالي.

– **فحوى النظرية** : ترجع هذه النظرية إلى جهود "مارشال ماكلوهان" و "هارولد إنيس" الذي كانا سباقين في صياغة أفكارها، حيث ركزا في تحليل عملية الاتصال على التكنولوجيا المستعملة في وسيلة الاتصال التي تفرض هيمنتها في كل مرحلة تاريخية، فالحتمية التكنولوجية من النظريات المادية التي اهتمت بتأثير تكنولوجيا وسائل الإعلام على شعور وتفكير وسلوك الأفراد، ويشير مصطلح الحتمية إلى اعتماد متغير واحد فقط في تفسير الظواهر، أي أن وسائل الإعلام هي السبب في تفسير التغير لدى المجتمعات.

وقسم ماكلوهان تطور الاتصال الانساني إلى :

•**مرحلة الاتصال الشفوي** : تعتبر المرحلة الشفوية التي تعتمد علي الاتصال الشفوي كمرحلة كانت ما قبل التعلم اي فترة القبلية حيث كان الأفراد يعتمدون علي الحواس للتكيف مع الظروف المحيطة (السمع. البصر. الشم . التذوق. اللمس.)

•**مرحلة الكتابة** : وقد امتدت مع معظم التاريخ البشري فقد اعتبر "ماكلوهان" أن اكتشاف الكتابة قبل 3500 للميلاد يعتبر ثورة الاتصال الأولى، إذ أوجدت هذه الثورة اللغة المكتوبة وسمحت بالتدوين، وهو أحد شروط التطور.

• **مرحلة الطباعة** : ظهرت الطباعة في القرن الخامس عشر بفضل اختراع جوتينبرغ للحروف المتحركة وظهور الكتب مما ساعد علي النسخ والنشر الفردي وساهت ببروز الذات وسمح المطبوع للأفراد بالتعلم والقراءة والاعتماد علي النفس كما اصبح من الممكن توحيد التعليم وظهر جمهور جديد خاص بالوسيلة.

•**مرحلة الاتصال التكنولوجي**: ترافقت هاته المرحلة مع اكتشاف الإذاعة والتلفزيون في العشرينات والخمسينات من القرن الماضي، فقد نقلت المجتمع من مرحلة الثقافة المكتوبة إلى مرحلة الثقافة المسموعة والمسموعة المرئية، حيث يرى "مارشال ماكلوهان" أن طبيعة وسائل الإعلام هي التي تشكل المجتمعات أكثر من مضمون الرسالة. معتبرا أن ازدياد حدة التطور في هاته المرحلة جعلت من العالم أشبه بـ" **قرية كونية** " .

– **أطروحات النظرية : (الافتراضات)**

ارتكزت أهم أبحاث وأعمال "ماكلوهان" على ثلاث فرضيات أساسية ظهرت في مؤلفه الرئيسي "كيف نفهم وسائل الإعلام؟،" والتي كانت عبارة عن مقولات أخذت شهرة وانتشارا كبيرين في أوساط الباحثين والمهتمين، والتي تتمثل في:

– **وسائل الاتصال هي امتداد لحواس الإنسان:** حيث يرى أن الناس يتكيفون مع ظروف البيئة في كل عصر من خلال استخدام حواس معينة ذات صلة بنوع الوسيلة و طريقة عرضها ، فمثلا كاميرا التلفزيون تمد أعيننا، والميكروفون يمد

أسماعنا، وهذا الامتداد يتطلب علاقات جديدة، أو أشكالا جديدة من التوازن بين مختلف حواس وأعضاء الجسم، فمن غير الممكن مثلا رفض الخضوع للعلاقات الجديدة أو للبنيات الحسية الجديدة التي تثيرها الصورة المتلفزة والتي تختلف باختلاف الثقافات. وتعدل وسائل الإعلام الظروف المحيطة بنا لأنها تجعل نسب استخدام حواسنا تتغير في عملية الإدراك، فامتداد أي حاسة يعدل الطريقة التي نفكر ونعمل بمقتضاها، ويعدل الطريقة التي ندرك بها العالم، وهو ما يؤدي في النهاية إلى خلق بيئة إنسانية جديدة.

– **الوسيلة هي الرسالة** : بمعنى أن طبيعة كل وسيلة وليس مضمونها هو الأساس في تشكيل المجتمعات على أساس أن لكل وسيلة جمهورها الخاص الذي يفيد مما عرضته الوسيلة وخصائصها و مميزاتها، حيث أن تفاعل الجمهور هو مع الوسيلة، ومنظومة التغيير لديه تشكله طبيعة الوسيلة الإعلامية، فكما يحب الناس القراءة بسبب أوراق الصحيفة ونمط الكتابة فيها فإنهم يحبون التلفزيون بسبب الشاشة التي تعرض الصور والصوت والحركة والألوان، ويقول بأن لكل وسيلة أفضلية في نقل الرسالة فمثلا مشاهدة مباراة كرة قدم أفضل في التلفزيون عنها في الإذاعة ومتابعة الأحداث والأخبار والتحليلات أفضل في الصحيفة منها في التلفزيون، فكل وسيلة خصائص تجعلها الأفضل في إثارة الموضوعات.

– **وسائل الإتصال الساخنة و الباردة** :اعتمد تقسيم "ماكلوهان" لوسائل الاتصال إلى ساخنة وباردة إلى فكرة "التخيل،" فمعنى الوسائل الساخنة هي التي الوسائل التي لا تحافظ على نسب استخدام الحواس وتقدم المضمون الإعلامي في قوالب جاهزة و " مصطنعة " لا يحتاج منه التفكير والتخيل، حيث لا تحتاج إلى جهد مثل الإذاعة ،والصحيفة . ويستخدم فيها الإنسان حاسة واحدة، أما الباردة فهي وسائل الاتصال التي تحافظ على نسب استخدام الحواس بحيث يستخدم فيها الفرد أكثر من حاسة ، ويستغرق جهدا و وقتا و فرصة للتخيل، فهو عنصر مهم في إكمال الفكرة والإضافة الإبداعية عليها من خلال التفاعل والمشاركة مثل الحديث والتلفزيون والأنترنت

الانتقادات الموجهة لنظرية الحتمية التكنولوجية :

من بين أهم الانتقادات الموجهة لنظرية الحتمية التكنولوجية هو انطلاقها من التفسير المطلق لتغير المجتمعات الذي يرتبط بمتغير واحد وهو " الوسيلة " وهذا طرح يصطدم بعدم تطابق تاريخ، بالإضافة الى أن الحتمية التكنولوجية تغفل المتغير القيمي في العملية الاتصالية فمحتوى الرسالة لا يمكن أن يكون عنصرا فاقدا للتغيير.

فيما نجد ريتشارد بلاك ينتقد فكرة القرية الكونية التي وظفها ماكلوهان معتبرا أن العالم تجاوز هذا الشكل ووصل لحالة من التشظي بحيث أصبح البشر وكأنهم في بناية ضخمة ولكن كل فرد يعيش عزلة اجتماعية رغم القرب المسافات بينهم.

الأهمية الابستمولوجية لنظرية الحتمية التكنولوجية :

من خلال المرتكزات الرئيسية التي اعتمدت عليها نظرية الحتمة التكنولوجية والتي ارتبطت بعامل التجدد التقني في وسائل الاتصال وما يرتبط بها من تغير في أنماط التلقي والاستخدام يمكن القول أن هاته النظرية استطاعت أن تكتسب المرونة والعُدة المنهجية التي تُسهم في تفسير الظاهرة الاتصالية والاعلامية، وفق التغيرات التي تشهدها تلك الظواهر في ظل الانتقال من الوسائل التقليدية إلى الوسائل الرقمية ومن الاعلام التقليدي إلى الميديا الجديدة التي تتسيد فيها الانترنت صناعة الاتجاهات وترسم أنماط الاستخدام وصناعة الثقافات الجديدة .